# سمفونية الصحراء

للأستاذ عبد الحق فاضل

سئلت ذات مرة أن اكتب **عن اللغة العربية ( غناها وخصائصها )** .

غناها يعنى واحدة من خصائصها — وخصائصها تعنى مزاياها وعيوبها .

**عيوب العربية**

غير قليلة ، لا تحصى كثرة . منها صعوبة تعلمها بسبب كثرة مفرداتها . ومترادفاتها ، على المتعلم ، وقد روى أحمد بن فارس عن الثعالبى أن حمزة الاصبهانى قد جمع من أسماء الدواهى ما يزيد على اربعمئة ! ومع انه اورد ذلك فى معرض المباهاة بغزارة معين العربية ووفرة مفرداتها لم يسعه الا أن يكمل الرواية بقوله : « وذكر أن تكاثر أسماء الدواهى من الدواهى » !

وجمع بعضهم للاسد خمسمئة اسم وللحية مئتين ! . .

وقد سأل الرشيد الاصمعي « عن شعر لابن حزام العُكلى ، ففسره ، فقال : يا أصمعى ، إن الغريب عندك لغير غريب ، قال : يا امير المؤمنين ، الا اكون كذلك وقد حفظت للحجر سبعين اسما ! »*.

كذلك رووا عن ابى العلاء المعرى أن احد السفهاء لم يعرفه فقال له : يا كلب ! فاجابه المعرى : الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسما ! وبهذا الجواب عرف نفسه بأنه من العلماء ، وردَّ الشتم على الرجل، وشتمنا جميعا . . فمن منا يعرف للكلب ولو سبعة أسماء !

وأسوأ من تعدد الالفاظ للمعنى الواحد تعدد المعانى للفظة الواحدة — مما سبب الخلاف فى فهم الكثير من النصوص الجاهلية والاسلامية .

ثم هناك عدم اطراد المعانى فى استعمالات الكثير من صيغ التفاعل والتفعيل والتفعل والاستفعال ونحوها ، بالرغم من اطراد تصريفها .

وأدهى من ذلك عدم اطراد تصريف الافعال الثلاثية نفسها وهى العمود الفقرى للغة — ما يتطلب تعلم تصريف كل فعل على حدة ، ماضيه ومضارعه ومصدره ، بل مصادره فى الكثير من الاحوال . . منها مثلا : كتب يكتب ( كَتْباً وكتاباً وكِتبة — بالكسر — وكتابة ) ، وثار يثور ( ثَوْراً وثُؤُوراً وثورانا ) .

هذا الى كثرة الشواذ والمستثنيات فى كل قاعدة تقريبا .

حتى الفاعل يدل على المفعول احيانا . الا تصدق ! الجسد الكاسى ( يعنى المكسو ) والانف الراغم ( يعنى المرغوم ) !

* المزهر 1 / 325 .

حتى المؤنث يدل على المذكر احيانا ، مثل نسّابة ( بالتشديد ، اى نسّاب ) وراوية ( اى راوٍ ) .. ومثل حمزة وطلحة وعنبسة : اسماء رجال !

حتى المذكر يستعمل للمؤنثة احيانا ، مثل : ظئر ومرضع وحامل .. ومثل حَذام ونُعم وزينب : اسماء نســاء .

وهنــاك ما يطلق على الذكر والانثى كالخادم والفعيــل كالجريــح والفعول كالصبور .. والطفــل يعنى الذكر والانثى والمفرد والجمع !

ومن المفرد الذى يدل على الجمع عدا ذلك : الركب والسفر والسّكن ( كلها زنة النصر ) اى الركاب والمسافرون والسكان .

ثم لديك المفرد الذى لا جمع له من لفظه والجمع الذى لا مفرد له من لفظه ..

اما جموع التكسير فاىَّ شىء نقول عنها ؟ السيف جمعوه على : سيوف واسياف وأسْيُف ( كارؤس ) ومَسْيَفَة ( كمجزرة ) .. والاسد جمعوه على : أُسُد ( ككُتُب ) وأُسْد ( كشُكْر ) وأُسود ( كرؤوس ) وآساد وآسُد ( بضم السين ) وأُسدان ( كجُرذان ) وماسدة .. والشيخ على : شيوخ ( بالضم ) وشيوخ ( بالكسر ) واشياخ ، وشِيخة ( كصيغة ) وشِيخَة ( كعِبكة ) وشيخان ( كحيتان ) ومَشْيُوخاء ( بالفتح ) ومشايخ ومَشِيخة ( كمدينة ) ومَشْيَخَة ( كمهزلة ) .

والاسماء التى لا تملك مثل هذه الثروة الطائلة من تعدد الجموع لا يمكن التوصل الى معرفة جموعها مهما قل عددها ، عن طريق القياس ، فلا بد من تعلم كل واحد منها بالسماع . اما حالات جمــع الجمــع فنعفيك من سردها وحسبنا وحسبك منهــا قولهم : « ليس فى كلامهم جمعٌ جُمِعَ ستَّ مرات الا الجمــل فانهم جمعوه : اجملا ، ثم اجمالا ، ثم جامِلا ، ثــم جمالا ، ثم جمالة ، ثم جمالات . قال تعالى : « جِمَالَةٌ صُفْرٌ » فجمالات جمع جمع جمع جمع الجمع » ! *

ثم يأتيك العدد والمعدود فيبطشان ما شاء لهما البطش بقواعد اللغة افرادا وجمعا ، وجرا علــى الاضافة آناً ونصبا على التمييز أوانا ، وتغيير حركة آخر المعدود حسب موقعه من الاعراب طورا وبناءه على النصب لغير سبب مفهوم طورا آخر ، وتأنيثاً مع مذكر وتذكيرا مع مؤنث فى حالات دون حالات .

ومــا ذكرنا من مشاكل هذه العربية وتعقيداتها غير القليل جدا من الكثير جدا ، وما على من يريد ان يتفهم الحال على شىء من حقيقتها الا أن يتــورط فى قراءة ايٍّ شاء من تلك المؤلفات العديدة الموسعة فى قواعد اللغة صرفا ونحوا وتخريجا .

فمن جراء هذا كثرت المشاحنات والخصومات بين جهابذة العلماء انفسهم فى العبارة ما معناها ، واللفظة ما معناها او ما موقعها من الاعراب — يجهّل (بالتشديد) بعضهم بعضا ويسبّه ويشنّع عليه .

انى لأشعر بالعطف على كل اجنبى يتعلم هذه اللغة ، بل انى ليأخذنى العجب من نفسى أحيانا كيف تعلمت بعض قواعدها المعقدة كحالات العدد والمعدود، والتمييز بين طائفتَيْ ( بَقِيَ يبقَى بَقُوا يَبقَــوْن .. ومَشَى يَمْشِي مَشَوْا يَمشُون ) اللتين لم يعد يفــرّق بينهما الا الاقلون .. المتنطّسون .

وما لنا نرثى للاجانب ، وها هم تلاميذنا اولادنا المساكين يعانون من تعلمها رَهَقاً ما بعده رهق ، ويرسب بعضهم العام او العامين فى فصله من اجلها !. حتى غدت عند الاكثرين منهم أشق مواد الدراســة والمنهــا .

ما اقول كل هذا — ويمكن ان يقال أكثر منه — لاندد بلغتى التى اتعشقها ولا اعدل بها لغة فى التاريخ — ولا فى الجغرافيا — لكن هذه المصاعب فى تعلمها فى هذا العصر الذى تتعدد فيه مواد الدرس ، والكثير منها علمى تطبيقى مما يفتقر اليه كل بلد متحضر او سائر فى سياق التحضر — هذه المصاعب اللغوية — بل المصائب اللغوية — قد اضعفت تعلم العربيــة فــزادت اغلاط الكتّاب والمترجمين الى درجة خطيرة حقا وركّت اساليبهم حتى أصبحت الاخطاء والركــة تراثا للجيل الجديد واصبحت اللغــة تـزداد ضعفا وانحلالا يوما بعد يوم .

هذه المشاق والتعقيدات لم يكــن يحس بهــا العربى الجاهلى لانه يرضع اللغة مع الحليب ونادرا ما كان يلحن . والعربى الاسلامى كان يرضعها مــع الحليب ايضا لان لغة الكلام كانت ما تزال الفصحى ،

* المزهــر 2 / 89 .

وكان يدرسها في نفس الوقت ويجد في درسها متعة ومباهاة . امـا اليوم وقد تغيرت الظروف هذا التغير الهائل فقد اصبح تعلم اللغة على الاسلوب القديم من المستحيلات — الا على ذوى الاختصاص . حتى ذوو الاختصاص وحتى حملة شهادة الدكتـرة المتخصصون باللغة يرتكبون احيانا من الاخطاء ما ليس مقبولا لو صدر عن تلاميذهم .

وما زالت الاخطاء المشتركة تتزايد والعارفون باللغة يتناقصون . ولسوف ينفرط عقد العربيـة في بضعة اجيال حتى تغدو لغة عامية مشتركة بين الاقطار العربية ، بلا حركـات اعـراب ولا ضـوابط . . وتنفصم الصلة بيننا وبين تراثنا المؤثل الباهر ذاك ، في ميعة نهضتنا ونشوتها .

## ربّ يسّـر

ولو كان تعدد القواعد وتنوعها وكثرة الشواذ مما يعد ثروة لغوية مثل تعدد المترادفات اذن لكانت العربية اثرى اللغات بقواعد النحو والصرف ايضا ، وهي فعلا اغناها بكتبها النحوية واللغوية وتخريجاتها وتأويلاتها ترهـق الدارسـين ولا تضيف الـى العلم والمعرفة بشؤون الكون واسرار الحياة ، قتيلا .

عند ما تسلم النحاة هذه اللغة درسوها ومحصوها واخذوا بما اتفقت عليه اكثرية القبائل ، ونفوا ما انفردت به قبيلة او قبائل مما يخالف الاغلبية . نبذوا مثلا لغة « نحن الذون صبّحوا الصباحا » واخذوا باللغة الأروج وهي لغة ( الذين ) مع ان الاولى اصح في حالة الرفع ، ونفوا رفع اسم ( إنّ ) في لغة « إن هذان لساحران » ، ولغة ( استمرّينا ) بمعنى ( استمررنا ) ، وابطلوا عمل ( ما ) الحجازية . . والغوا نطق بعض الحروف في بعض اللهجات لندرتها ولانحصارها في عدد محدود من العرب مثل : الكشكشة والتشنشة والتضجّع والاستنطاء وما الى ذلك * . . بصرف النظر عما اذا كانت حسنة او سيئـة .

وبالرغم من كل ما حذفوا مما لا يكاد يحصى كثرة ، وجدوا مستثنيات كثيرة تشذ عن القواعد العامة — لكنها مستثنيات مشتركة بين كثير من القبائل فلم يحذفوها بل قعّدوها وفرضوها علينا . حذفوا الكثير وبقى الاكثر ، وما علينا نحن اليوم إلا ان نحذو حذوهم ونكمل ما بدأوا فنلغى الباقى من المستثنيات الزاخرة مراعاة لظـروف عصرنا وابقاء على كيان اللغة الذى يوشك ان ينهـار ، واللغة على كل حالة اداتنا ولسنا اداتها .

وتقييس اللغة ليس من اختراعنا فقد كثر القائلون به والداعون اليه ، من الاحدثين ومن الاقدمين الذين قال بعضهم مثلا ان كل اسماء الجمادات يجـوز فيهـا التذكير والتأنيث ، واقترح بعضهم تقييس الافعال الثلاثية وتوحيد ابوابها الستة في باب واحد كفتح يفتح مثـلا . والذى نقترحه نحن بدلا من ذلك تصنيفها بحسب معانيها للاستفادة منها اولا والتخلص من فوضاهـا الراهنـة ثانيا . . بالاضافة الى ضرورة تقييس مصادرها بـدلا من تركها من غير ضابط ، على السماع . والسماع على كل حال لم ينقل الينا من اللغة الا الجزء الاقل .

حتى لو لم يكن القدامى قد قالوا من ذلك شيئا فواجبنا نحن اليوم تجاه لغتنا وتجاه انفسنا ان نقـوله ونقول معه كل ما نـراه صوابا .

ولا مفر من التنازل عن بعض الاجزاء ، والا خسرنا الكل خسرانا مبينا . وان مع العسر يسرا .

ومتى تم لنا اصلاح لغتنا العظيمة وسهلنا تعلمها تمت لنا مزاياها وساغ تعلمها على ابنائها وعلى الاجانب الذين سيقبلون عليها ايما اقبال ولا شك ، وخاصـة يوم ياخذ اهلها العرب مكانهم الدولى والحضارى في الطليعة مع الشعوب التى تقود الرقـى البشرى علما وتقنا وانسانية وسلاما . . فتكون لغتهم بالاضافة الى مزاياها الاخرى ، التى سنتحدث عنها وشيكا ، اكمل اللغات بحق واوفاها بحاجات العصر . بل ان بعض الشعوب المسلمة سوف تتبناها بدلا من لغاتها الحاضرة ولا سيما اذا كانت لغاتها هذه ليست بالقومية الاصيلة . وفي باكستان مثلا حركة كبيرة تدعو الى تبنى العربية فيحتج عليها المعارضون بصعوبتها . والكثيرون من طلاب اللغات في الجامعات العالمية يودون تعلم العربية ذات المجد والتاريخ قديمـا وذات الاهميـة السياسيـة والاقتصادية حاضرا ، لكن ما يسمعونه عن هذه الصعوبة الشاذة يصرف الاكثرين منهم الى تعلم لغات اخرى .

لا ندرى بعد كل هذا — ايها العزيز القارىء — ما رايك في اى الابوين اشد حبا لولده المريض . . ذاك

---

* للمزيد يراجع : احمد تيمور باشا — كراس « لهجات العرب » .

الذى يسلمه ليد الجراح يفحصه ويكشف علته او علله ثم يجرى له الجراحة تسيل دمه وتبضع لحمه لتشفيه مما يعانى فيتمتع بالحياة ناشطة منتجة ، أم ذلك الاب الذى يخشى عليه الالم فيحوطه بالحنان التقليدى المتهيب الجزوع ويتركه خاملا يذوى ويذوى الى أن يفارق الحياة.

نأتى الى المزايا . .

## مزايا العربية

ولئن كانت كل اللغات تشارك عربيتنا فى الكثير من عيوبها فان لها لمزايا تنفرد بها دون لغات اهل الارض منذ ظهرت اللغات ونطق ابن آدم .

من هذه المزايا اولا هذه الكثرة الكاثرة فى المترادفات والصيغ والاشتقاقات — مما ذكرناه فى عداد العيوب بالنسبة الى المتعلمين ، فهى نعمة للادباء المترسين الحذاق هذه المرة . . مع وفرة طائلة فى التعابير الحضارية والفكرية والشعورية ، الى جانب الالفاظ الصحراوية البدائية . فمع ان المعجم العربى ( معجم بدوي ) لان رواة اللغة لم يأخذوا عن الحضر ولا عن القبائل المجاورة للحضر أو الاعاجم ، بل اقتصروا على البدو الخلّص الاقحاح . . لشد ما يدهشنا ما نراه من غزارة المادة الحضارية والفكرية الراقية فيه .

هذه الثروة الفاحشة ساعدت العرب منذ القدم على قرض الشعر والتصرف وتنويع طرائق التعبير فيه ، ونظم المطوّلات من القافية الواحدة يبلغ عديد بيوتها المئة والمئتين — ما لا نظير له فى اية لغة اخرى .

ثانيا : تبين لنا فى ابحاث سابقة ان اصل الآريين قد كان من الجزيرة العربية ، ومن ثم فان اللغات الآرية شرقية كانت كالفارسية والسنسكريتية واليشتونية ( الافغانية ) ، أم غربية كالاغريقية واللاتينية والكلتية والغالية ووارثاتها الاوربيات الحديثات — هذه اللغات كلها مع اللغات الحامية والسامية : بنات العربية .

ثالثا : ومن مزاياها الخطيرة غير المنظورة انها اصيلة ، أو باصطلاحنا اثيلة ، لانها من صنيع اهلها ، نبتت ونشأت واكتملت فى موطنها ، على السنتهم . . خلافا لمعظم اللغات الاخرى ، حية أو ميتة ، قديمة أو حديثة . . لانها كلها لم تنبت فى الارض التى يتكلم بها اهلها ولا هم الذين صنعوها أو نشّؤوها وربّوها ، هذه الخصلة الفذة انجبت المزيتين التاليتين .

رابعا : عند تأثيلهم الالفاظ الاوربية يعيدونها — كالذى قلنا مرارا — الى بعض اللغات الآرية القديمة على الاغلب ويقفون عند ذلك الحد ، لكن العربية ذات الثروة القارونية أوحت لنا ذات يوم عند تأثيلنا لبعض الفاظها ان نرجعها الى بداياتها الاولى التى حاكى بها الانسان الاول بعض الاصوات ثم تطورت على مر الاجيال حتى تكونت منها الفاظ جديدة فى المعنى والمبنى، مثل تسمية الفرّوج ( صوصي ) فى بعض الدارجات من صوته ، والمواء من قول الهرة ( ميو ) ، والهواء من صوته ( هووو ) ، وما الى ذلك . فهذا الاثل البدىء الصوتى الذى سميناه ( الرّسّ ) الذى يعنى معجميا : بداية الشىء ، ادى بنا الى وضع ما سميناه ( علم الترسيس ) أى البحث عن أرساس الالفاظ ، لا للغة العربية وحدها بل كذلك للآريات والحاميات والساميات اللواتى قلنا انهن بناتها ، لان الكثير من الفاظهن ما زال يمكن ارجاعه اثلا الى اللغة الام . وهذا اظهر لنا ان اللغة العربية قادرة بمفردها أن تبرهن على صحة ( علم نشأة اللغة ) وتكشف عن أسرار تكونها ونضجها وطرائقها التطورية العجيبة .

خامسا : ومن افضال العربية ومزاياها ان فيها الفاظا كثير عديدها عريقة النسب جد قديمة فى الوجود ، منذ عهود ما قبل التاريخ اى قبل عهود اختراع الكتابة، تدل على معان واحداث باد اهلوها ولم يبق من الآثار التنقيبية ما يدل عليها ، ومن مقارنة تلك الالفاظ بعضها ببعض ومراقبة سيرها التطورى من زمان الى زمان وانتقالها على الخريطة من مكان الى مكان على الاغلب ، يمكن استخلاص حقائق تاريخية مجهولة لولا سجل اللغة — العفوى — هذا لبقيت الى الابد مجهولة .

## منشأ العيوب والمزايا

هذه المزايا وتلك العيوب . . ما منشؤها ؟

لندهش القارىء العزيز نقول ان منشأهما واحد. فاللغة العربية بحسناتها وسيئاتها ليست الا حصيلة رحلتها الطويلة فى التاريخ وترحلها المتنقل الدائب فى حيز محدود من الجغرافيا — المعربة .

كنت قرأت بحثا للمؤرخ العالمى المشهور (توينبى) عن تحول الجزيرة العربية الى هذه الصحراء الرملية بعد أن كانت فى العهد الجليدى غابة لفّاء تزخر بالحياة

والمياه . موجزه : أن سكان المنطقة حين صوّحت بهم الغابة الفيحاء وتناقصت خيراتها كانوا ثلاث طوائف ، فطائفة هاجرت الى مناطق خصيبة اخرى فنجت ، وطائفة كيفت نفسها مع البيئة الجديدة فعاشت ، وثالثة لم تهاجر ولم تستطع أن تتكيف مع البيئة فبادت . ولم يتحدث ( تويني ) عن النتائج اللغوية التي قد تكون نجمت من هجرة النازحين وتكيف الباقين . وليس لنا أن نعاتبه فهو مؤرخ لا لغوي ، وانما نحن المطالبون بأن نبحث ونتساءل .

في وسعنا أن نقول بسهولة ان تلك الهجرات نقلت لغة القوم ولهجاتهم الى المناطق التي هاجروا اليها .. الى ايران فالافغان فالهند شرقا ، والى الهلال الخصيب فالاناضول فاوربا شمالا ، والى الحبشة ومصر فالشمال الافريقي الى اقصاه غربا . يتأيد هذا لنا اذا تتبعنا الكثير من الالفاظ المتشابهة بين العربية ولغات هذه الاصقاع ولا سيما في الضمائر واسماء الاشارة والالفاظ الطبيعية البدائية — كما سبق أن قلنا في أبحاث سابقة . والاوربيون يسمون لغاتهم ( اللغات الهندية / الاوربية ) لانهم وجدوا شبها بين الفاظ لغاتهم والفاظ السنسكريتية ( اللغة الهندية القديمة )، واذا كان ذلك ينبيء أن الاوربيين قد قدموا اصلا من الهند فان استنتاجنا ينبيء أن الكثيرين منهم قدموا من الارض العربية راسا ايضا . وأية كانت الحال فان من البديهي أن بوسعنا أن نسمي تلك اللغات على وجه الاجمال باللغات ( العربية / الهندية / الاوربية ) .

فمن اجل هذا قلنا في مطلع الحديث ان اللغة العربية أم اللغات الآرية بالاضافة الى الحامية ( لغات الشمال الافريقي والصومال ) والسامية ( لغات الهلال الخصيب ومصر والحبشة ) ، وان العربية ليست قادرة على ترسيس الالفاظ لنفسها فقط بل لبناتها من هاته اللغات ايضا .

ان حياة الترحل والنُجعة في تلك البيداء العربية تسمت القوم بطونا وقبائل كما تسمتهم مواطن الخصب المستديم الى قرى ومدائن . وتنتقل تلك البطون والقبائل على غير نظام — واحيانا على نظام — من منطقة في موسم الى اخرى في موسم آخر .. فتتقارب طورا وتتباعد طورا ، ويندمج بعضها في بعض آونة وينشطر بعضها من بعض أوانا .. وكثيرا ما تضطر الظروف عائلة من القبيلة الى الانسلاخ من مجموعتها .. او فردا يلتجيء الى عشيرة اخرى فيتزوج وينجل فيهم .

وفي جميع الحالات يأخذ الافراد والجماعات لغتهم معهم حيثما ذهبوا . واذا بحياة العزلة تطور اللغة على السنة فئة في اتجاه غير الذي تتطور فيه على السنة فئة اخرى . فما كانوا يطلقونه على الارض الصلبة البيضاء هنا يطلقه بعضهم هناك على الارض البيضاء ولو كانت رخوة ، وما كان يطلق على التل الصغير صار بعض المنشقين يطلقه على الجبل الذي يجدونه في أرض نجعتهم مثلا . وقد سبق ان استشهدنا على مثل هذه التطورات بالكثير من النماذج ، نذكر منها هنا ( الأبرق ) الذي اصل معناه بياض يلمع في لون آخر كالبرص ، فصار يعني معجميا كل شيء اجتمع فيه سواد وبياض ، ثم صار يعني الارض الغليظة فيها حجارة ورمل وطين .. ثم نطقه قوم ( الابلق ) بنفس معناه الاول اي : الاسود والابيض . وهو ينطق ( بْلَق ) بسكون اوله في الدارجة المغربية ويعنون به : الشديد بياض البشرة . وهكذا اختص بلون واحد وفقد الآخر . لكن نفس الصيغة اي (black) تعني بالانكليزية اللون الآخر فقط اي الاسود . وهي تنطق blanc بالفرنسية و بالاسبانية blanco وblanco بالايطالية لكن بالمعنى المغربي اي الابيض .

واسم الحيوان صار يعني حيوانا آخر او اكثر من حيوان مثل السِّمّة ( كالهمة ) وهو من اسماء الاسد اطلق على الذكر من الحيّات واثنى التنفذ .

ويتغير النطق كذلك اذا كان احد الابوين التغ او ارتل فيؤثر في اولاده . والاغلب ان الكبار يقلدون رؤساءهم في النطق ولا سيما شيوخ العشائر .

.. فيكون اختلاف اللفظ في جميع هذه الحالات وغيرها — وهي كثيرة — منشأ الفاظ جديدة متقاربة في المبنى والمعنى ، وهو ما اثار تعجب قدامى اللغويين واعجابهم مذ عدّوه من بدائع العربية وسموه تصاقب المعاني بتصاقب الالفاظ . من النماذج الكثيرة : سل ، سلت ، أصلت .. هواء ، هباء ، هباب .. قص ، قصم ، قسم ...

وقد تتباعد الفاظ متصاقبة فلا يبقى بينها شبه ظاهر ، مثل فعلَيْ : قطّ وهذّ ، فقد تطورت ( قط ) هكذا : قطّ — قدّ — قذّ — خذّ — حذّ — هذّ ..

وان كان المعنى قد ظل هنا ضمن نطاق ( القطع ) فانه قد يتغير مع تغير اللفظ في بعض مناحي التطور

مثل : حذّ ــ حسّ ــ حشّ ــ عش ، عاش ، عيش : ( حياة او خبز ) .. او هكذا : حش ــ حشا ، حشية ، ومنها حشية الثوب ، ثم حاشيته ، ثم حاشية الكتاب . وما ابعد كل هذا عن الرس ( قط ) فى اللفظ والمعنى .

ومن امثلة اختلاف النطق ما زال القاف يلفظ فى دارجاتنا على اربعة اوجه ما بين بدو وحضر فى مثل : قاعد ، كاعد ، جاعد ، آعد .

فاذا كان هذا شان الكلمة من رسّ واحد فما بالنا بالكلمات الكثيرة المنحدرة اساسا عن ارساس شتى؟

اظننا فهمنا من كل ما تقدم كيف تعددت الفاظ المعنى الواحد وكيف تنوعت معانى اللفظة الواحدة مما اغنى اللغة ــ ومن ثم كيف تباينت واضطربت طرائق التعبير واختلفت قواعد النحو والصرف .

فاذا تلاقى بعض اولئك الضاربين فى آفاق تلك الجزيرة العربية الفسيحة الارجاء ، فاندمجت قبيلة فى قبيلة .. اندمجت اللغتان .. لا كما هى الحال فى الحضر حيث يقيم كل فريق فى حى من البلدة الواحدة فيظلون متجاورين محافظين على لغتهم ولهجتهم .. فان القبيلة فى البادية كلها حى واحد ، يلعب صغارها معا دون تمييز بين طبقات ، ويحضر كبارها كلهم فى مجلس الشيخ على سواء ، ويضربون خيامهم معا عند النزول ويقوضونها معا عند الرحيل . فما هو الا جيل او جيلان حتى تندمج اللغتان فتكثر الالفاظ للمعنى الواحد وتتعدد المعانى للفظة الواحدة .

فلو ان القبائل العربية قد اجتمعت كلها فى صعيد الى غير افتراق لتوحدت لغاتها فى لغة واحدة ، ولو قد افترقت كلها عن بعضها بعضا الى غير لقاء لتعددت لغاتها وتباينت حتى لا يعود بعضها يفهم عن بعض ولاصبحت لهجات كل من القبائل المنفصلة لغات محلية ضيقه الابعاد بالنسبة الى اللغة الام ، كالذى وقع فعلا للبابليين والكنعانيين وغيرهم من الساميين ــ والى حد ما للحميريين ( اهل اليمن ) .

لكن تكرار الافتراق والانشطار الذى ينجب الالفاظ الجديدة والمعانى الاضافية او المختلفة ثم تكرار اللقاء الذى يجمع كل الحاصل الجديد فى بوتقة واحدة ، ثم اتصال البداوة من جهة اخرى لضرورة التبادل المستمر مع العروبة المتحضرة على جوانب المعرية ــ فى داخلها وخارجها ــ خلق هذه اللغة الفخمة السمينة ، والعملاقة بين اللغات .

ولو كانت البداوة انقرضت قبل جمع اللغة لضاع علينا الكثير من الالفاظ البدائية التى ما زالت فيها آثار مَنْشئها الصوتى ينم عليها ، وقد جرى ذلك فعلا للغات التى غادرت المعرية وابتعدت ولو قليلا عن فلواتها كالساميات اللائى فقدن من ذلك الشىء الكثير ، والحاميات اللائى كنّ ابعد فى المكان واقدم فى الزمان فكان ما فقدنه اكبر مما فقدت الساميات ، ثم الآريات اللائى انقطعت صلتهن بالارض الام واهلها ــ حتى ما كان منهن قريب المكان كالفارسية ــ فكان ما فقدنه اكثر واكثر .

فهكذا تكونت مزايا اللغة العربية وعيوبها ــ بدا بيد .

## البدائية والرقى

يقول فقهاء علم اللغة المحدثون من الفرنجة ان اللغات البدائية هى التى تكثر فيها الالفاظ القريبة من بداياتها الصوتية ، على حين ان اللغات الراقية لا يوجد فيها من ذلك الا القليل الاقل . وكثيرا ما نسمع حتى من بعض اللغويين العرب من يستنتج من ذلك ان العربية لغة بدائية من ثمّ .

الفكرة من اساسها مغلوطة ، تعميم . وجدوا هذا فى لغات بدائية وهذا فى لغات راقية ، فقالوا ذاك علة ذلك . وجعلوها قاعدة . المظهر شىء والسبب شىء آخر ، ان كلام رجل ملتج بالانكليزية وكلام رجل حليق اللحية بالفرنسية لا يعنى ان اختلاف حالة اللحية هو سبب اختلاف اللغة . فلنبحث عن سبب معقول لوجود الجذور الصوتية فى اللغات وغيابها ، غير الرقى والبدائية .

اللغات البدائية بقيت بدائية فبقيت الفاظها قريبة من ارساسها الصوتية لان اهلها لم يختلطوا بغيرهم ، لا لانهم لم يرتقوا . اما الشعوب المتحضرة ــ الاوربية مثلا ــ فقد جاءت من مناطق اخرى ولغاتها خليط من لغات شتى .. ابتعدت عن منشئها واهلها ، وفقدت جذورها الصوتية لا عند ما ارتقى اهلها ولكن منذ كانوا همجا متوحشين ، فى اوربا نفسها ، بل قبل ان ياتوا الى اوربا ايضا .

لقد قلنا توا ان الساميات فقدت الكثير من ارساسها واثولها لانسلاخها عن المجموعة الاعربية ، مع ان مواطنها بقيت قريبة من الوطن الام .

ولا ادل على فساد نظريتهم من ان اللغة العربية قد جمعت بين الخصلتين ، بَدْوُها تنطبق عليهم القاعدة الاولى ( عن البدائيين ) وحضرها لا تنطبق عليهم حالة الاوربيين المتحضرين مثلا لان العرب بدوهم وحضرهم لم يغادروا معريتهم ولم يبتعدوا عن موطن آبائهم الاوائل الذين خلقوا لغتهم لانفسهم بانفسهم • ومن جهة اخرى، كم من لغة ما تزال همجية بدائية في بعض القارات ، قد فقدت جذورها الصوتية لا يتمادها عن موطنها الاول واختلاطها بلغات بدائية اخرى .

ويمكننا ان نضعها قاعدة عامة فنقول : « ان السبب في ضياع الجذور الصوتية من اللغات ليس التحضر والترقي ، بل الهجرات والمخالطات » .

ان الذى ذكرنا آنفا من كثرة التطورات اللغوية التى حققتها كل قبيلة على حدة ثم اجتماعها لتبادل ما جد لدى كل منها من الفاظ ومعان تنضاف الى رصيد اللغة المشتركة — لامر يشبه اسرة يخرج افرادها للكسب ثم يعود كل منهم بحصيلة كده ليضيفه الى ثروة الاسرة . حتى بلغت ثروة اللغة ذلك الحد التضخمي المشهور .

وان شكا بعضهم قليلا من تكاثر مفردات المعنى الواحد فان الامر الذى طالما شكوا منه كثيرا هو تعدد المعاني للفظ الواحد . وغريب أن يصدر مثل هذا التشكي عن مثقفين من العرب الذين يتقنون لغة او اكثر من لغات الاقطار الراقية الرائدة في مجالات العلم والمخترعات . افلم يلاحظوا ان ذلك شأن اللغات الاجنبية ايضا ؟ إفتحوا اي معجم بالانكليزية او الفرنسية، وهما لغتان حديثتان وطفلتان بالقياس الى العربية الناضجة المكتملة القديمة ، تجدوا العجب من فوضى اختلاط المعاني وتبايناتها ، حتى في المصطلحات العلمية والتقنية الحديثة .

فهذا عيب التطور اللغوى لا عيب العرب ولا عربيتهم .

### المهجـور

كثر الهجوم على الحوشي المهجور في معاجمنا العربية والمطالبة باعدامه وتصفية اللغة من غوائله ، مع انه لم يسبب لنا ضررا ولا هم ذكروا انه ارتكب جناية . ان كانوا لا يريدون ان يستعملوه فمن الذى اجبرهم على ان يستعملوه ؟ وان كانوا لا يريدون منا ان نستعمله فمتى استعملناه ؟ انى لم افهم ماذا يقصدون. بديهى أن المعجم الموجز الطلابى يخلو من الالفاظ المهجورة وحتى القليلة الاستعمال . وفى كل لغة معاجم جيب صغيرة بحجم الكف او اصغر احيانا تقتصر على الالفاظ الاساسية التى يحتاج اليها المتعلم وطنيا أو اجنبيا ، ثم يكبر حجم المعاجم في طبعات مختلفة ، ويكبر حتى يبلغ العدد العديد من المجلدات الضخمة . ولكل من الناس حجمه الذى يناسبه من المعاجم والملابس . فما بالنا لا نرضى أن تكون كذلك الحال في عربيتنا ؟

ثم كيف نفهم تراثنا الجاهلى ، بل حتى الاموى ، بل حتى العباسى ، اذا نحن صفينا معاجمنا من الالفاظ التى اصبحت اليوم مهجورة وكانت دارجة في لغة الحديث اليومى عند اسلافنا ؟ ان كل لفظة لغوية كائن حى مهما يكن اليوم مغمورا مهملا . فمن الذى يطالبنا بان نئدها فعل الجاهلية ؟ كل كلمة لها حكايتها • نطق بها ناس من الاجداد وسجلوا بها شيئا من مشاعرهم او نبذة من حياتهم .

انظر الى كلمة ( اعتقد يعتقد اعتقادا ) • لفظة مهجورة ، نعم . غريبة لا جاذبية فيها ولا رشاقة ولا موسيقا ، نعم . لكن لها تاريخها . فاسمع مأساتها :

« العَقْد ( بالفتح ) — طائر يشبه الحمام ، أو هو الحمام • والاعتقاد ان يغلق الرجل بابه على نفسه فلا يسأل احدا حتى يموت جوعا . . قال محمد بن انس : كانوا اذا اشتد بهم الجوع وخافوا أن يموتوا أغلقوا عليهم بابا وجعلوا حظيرة من شجرة يدخلون فيها ليموتوا جوعا . قال : ولقى رجل جارية تبكى ، فقال لها : ما لك ؟ قالت : نريد أن نعتقد . . » — اللسان •

افهذه كلمة يحل لاحد وادها لمجرد كونها حوشية مهجورة وهى تحمل مثل هذا التاريخ الفاجع ؟ كيف نعرف مآسى تلك الصحراء ودواهيها وحروبها وغرامياتها . . بدون معونة هذه الكلمة وامثالها ؟

اما اطلاق ( العقد ) على الحمام فسببه أن من سجية هذا الطائر ان كلا من الذكر والانثى يعتقد اذا ثكل صاحبه — فيضرب عن الطعام والشراب حتى يموت .

فبالاضافة الى ما للكلمة من قيمة تاريخية

بشرانية ، لها قيمتها العصرية العملية نحن ما زلنا بحاجة اليها لكثرة ما يقع فى زماننا من حوادث الاعتقاد، السياسى وغيره .

والاخبار كثيرة فى كتب اللغة عن عادات القوم ووجوه معايشهم مما لا تجده فى كتاب الا حين تقرا شرح معانى بعض الالفاظ التى اصبحت منكرة مجهولة لدينا ، وحتى لدى العباسيين والامويين ، بل حتى لدى الراشديين الذيـن سبقوا فاتخذوا من دراسة الشعر الجاهلى ولا سيما الغريب من الفاظه احدى وسائل تفسير القرآن .

هذا الى ان المهجور والحوشى او الوحشى او الآبد : ضرورى للدراسات اللغوية ، على الاساليب العصرية ولا سيما تاثيلا وترسيسا .

ان المهجور لثروة اى ثروة ، لا تراثية تاريخية نخرية وحسب بل عصرية وعملية ايضا : فهى مادة خامة لسبك المصطلحات الحديثة ــ علاوة على ما تقدم من مناقبها .

معلوم ان الاوربيين اعتادوا ان يستعيروا الفاظا مـن الاغريقية واللاتينية ليصوغوا منها مصطلحاتهم الحديثة لكيلا يخلط المصطلح بالفاظ الاستعمال اليومى من لغتهم ، مثل : telegraph (= tele : من بعيد + graphمكتوب ) بدلا من قولهم بالانكليزية ( مكتوب من بعيد : written afar)مثلا. وقد كان هذا المصطلح الاغريقى حوشيا وغريبا على الناس اول الامـر ، لكنهم تعلموه ودرجوا عليه .

وفى امكاننا استعمال الفاظنا المهجورة كـذلك لبعض المصطلحات بدلا من الالفاظ الادبية او الكثيرة الاستعمال . كنموذج اذكر ( التوتين ) استعملتها بدل ( التوطين ) فى ترجمتى لمعجم ( صيانة الطبيعـة ) مقـابـل : (immobilization) التى ورد تعريفها فى المعجم : « تثبيت الحيوانات موقتا فى بقعة لغرض الاقتناص او الرماية او النقل او التدجين ، الخ » *. والتوتين من « وتن بالمكان : ثبت واقام » ــ وهكذا يتخصيص ( التوتين ) بالمعنى الاصطلاحى المذكـور ويبقى ( التوطين ) على معناه العام .

وكذلك ( الضَّلّ ) ــ زنة الملل ــ وهو لغويا : « الماء الذى يكون تحت الصخر لا تصيبه الشمس » استعملنـاه مقـابـل (ground water) بالانكليزية و (nappe fréatique) بالفرنسية ، وتعريفـه الاصطلاحى فى المعجم المذكور : « ماء تجمع تحت سطح التربة فوق أول طبقـة كتيمـة » .

وكذلك ( الخَسْل ) ــ زنة الغسل ــ الذى معناه اللغوى من « خسلت شيئا : رذلته ونفيته » استعملناه مقـابـل اصطـلاح (littering) بالانكليزيـة و (abandon de detritus)بالفرنسيـة ، الذى لا نجد له فى عربيتنا الرائجة ــ غير المهجـورة ــ كلمـة تؤدى معنـاه .

ولا ضير ان يكون لفظ المصطلح حوشيا غيـر متداول بل الافضل ان يكون كذلك لكيلا يلتبس معناه الاصطلاحى بمعناه العام . والمصطلحات واجبة التعلم على كل حالة ولن يفهمها غير المتخصص ولو كـانت من الالفاظ المانوسة الجارية يوميا على الالسنة . وان شئت برهانا فاذهب الى اى نجار او حداد او صائغ . . وسله عن مصطلحاته واسماء ادواته فستجد انك لن تفهم الكثير منها ولو كنت تعرف معانيها اللغوية العامة.

والعجب كل العجب ممن يتهمون العربية بالقصور فى مضمار المصطلحات . لقد اتى على العربية حين من الدهر كانت فيه اغنى اللغات طرا بالمصطلحات العلمية من طب وفلك ورياضة ولاهـوت وفلسفـة وتصوف ولغة . . وكانت اللغات الاوربية فى عصر نهضتها ، وعلى راسها اللاتينية ، هى التى تشكو عجزها عن مجاراة هذه العربية والترجمة عنها ، فاضطروا الى اقتباس الكثير من المصطلحات العربية كما هى وادخلوها فى لغاتهم مثل اللوغارتم والصفر والجبر والكحول والقلو وحرف (x) الذى كان ينطق شينا باللاتينية ، مقابـل الحرف ( ش ) العربى الذى اتخذه العلماء العرب رمزا لكلمة ( شىء ) بمعنى الشىء المجهول .

فلما نام العرب وخيمت عليهم عصور الجهـل والظلام قعدت لغتهم العربية تنتظر قيامهم . وها هم اليوم قد هبوا وها هى قد هبت معهم . وما من لغة عرفها تاريخ الفكر البشرى اقدر من عربيتنا هذه على سبك المصطلحات الدقيقة الموجزة ، لا المادية فقط بل المعنوية ايضا ، من عقلانية ونفسانية ووجدانية .

---

* « اللسان العربى » ــ العدد 12 ــ ج 1 ــ سنة 1975 ، ص 253 .

وبالاضافة الى هذا الكنز الذى لا يفنى من نفائس المفردات مأنوسها ومهجورها،لدينا رصيد عظيم من قابلية للاشتقاق لا مثيل لها فى اللغات ، وكفانا شاهدا تلك الذخيرة الهائلة من اوزان الصيغ العربية تربو على ( 1300 ) وزن ، يمكننا ان نصنفها ونستخدمها ونستثمرها فى ( تقييس المعانى مع تقييس الاشتقاق )... ونناهيك به منجما لاستخراج المصطلحات. وان رمتم شاهدا على فضل العربية من اقوال الاجانب — وهى كثيرة — فاليكم منها شهادة العلامة الفرنسى ارنست رينان — وهو ليس صديقا للساميين عامة ولا محبا للاسلام ، لكن عظمة العربية فرضت عليه مع ذلك ان يقول ، فى منتصف القرن التاسع عشر : « من اغرب ما وقع فى تاريخ البشر وسبب حلّ سرّه انتشار اللغة العربية ، فقد كانت هذه اللغة غير معروفة اول الامر واذا بها تبدأ فجأة فى غاية الكمال ، عظيمة السلاسة ، مفرطة الغنى ، كاملة الى حد انها لم يطرأ عليها حتى اليوم اى تعديل مهم . فليس لها طفولة ولا شيخوخة ، ظهرت من اول امرها تامة مستحكمة . ولم يمض على فتح الاندلس اكثر من خمسين عاما حتى اضطر رجال الكنيسة الى ان يترجموا صلواتهم الى العربية ليفهمها النصارى !

ومن اغرب المدهشات ان تنبت تلك اللغة القومية وتصل الى درجة الكمال وسط الصحارى عند امة من الرحل ، تلك اللغة التى فاقت اخواتها بوفرة مفرداتها ودقة معانيها وحسن نظام مبانيها . . » .

لا نجادله فى ثنائه على العربية فالذى نظنه انها مستحقة له ، لكننا نخالفه فى حقيقتين علميتين : اولاهما ان العربية ان كانت غير معروفة اول الامر كما قال — ويصح هذا بالنسبة الى الاوربيين — فلا يعنى ذلك انها نشأت كاملة وانها لم تكن لها طفولتها البعيدة فى اعماق التاريخ . والثانية ان تلك اللغة التى قال انها فى غاية الكمال لم تكن من صنع البداوة وحدها فى حياتها المترحلة ، بل شاركت فى الجانب الحضارى منها مناطق الحضر المستقر على مدى الاجيال . وحسبها عراقة وقِدَماً ان من بناتها الساميات : البابلية والفرعونية والكنعانية ، فضلا عما تلاها من ارمية ومندائية وآشورية .

## الترسيس

قلنا ان من مزايا عربيتنا انها تستطيع ان تبرهن علميا على صحة ( علم نشأة اللغة ) من محاكاة الاصوات ، وانها قادرة كذلك على ترسيس الالفاظ لنفسها ولغيرها من اللغات المتولدة منها ، حتى الآريات .

فلنضرب للقارىء مثلا . قال ابن الغابة الاعربى : ( فرررر ) يحاكى صوت رفرفة اجنحة الطائر وتعبيرا عن فراره عند الاقتراب منه . ومن هذا الصوت صيغ فعل ( فرّ يفرّ فرارا ) . ومنه تولد فعل فَرِق ( كفرح ) اى خاف ، وفَرَق ( كضرب ) بين الشيأين ، فصل بينهما . . وفارق ، وتفرّق ، ثم فرث وفرخ وفرد وفرز وفرش .. الخ ،،

ومثالا من ترسيس الالفاظ الاجنبية نذكر كلمة ( perka ) الاغريقية التى يعدها اللغويون اثل ( الفرخ ) بالعربية بسبب تطابق معناهما . بينما العكس هو الصحيح ، لاننا نجد فى العربية علة التسمية وهى ( انفراخ ) البيضة اى إنشقاقها ، عن الفرخ ، شبيها بتسمية ( الفرّوج ) ايضا لنفس السبب اى ( لانفراج ) البيضة عنه ، او لانه يفرجها ويخرج منها . ففى الاغريقية لا يمكن تأثيل perka لانها لا اثل لها فيها ، لكن يمكن تأثيلها وترسيسها فى العربية هكذا : perka — فرخة ، فرخ — فرق — فرّ — فرررر . .

ومن فعل ( فرّ ) نجد فى الانكليزية : fear خاف . . و flight : خوف ، فرار ،، و free حرّر واطلق ،، و fly : طار ، او ذبابة (لانها تطير ) . و flea : برغوث ( لانه يفرّ ) .

وما نكتفى بذكر هذا المثل البسيط ، الا اختصارا.

وهم عند ما يبحثون عن اثول الفاظ لغاتهم يرجعونها الى مشابهات لها بلغات اوربية اخرى قديمة او حديثة ، لكنهم لا يقولون من اين جاءت فدخلت فى تلك اللغات ، فى العربية وحدها يجدون الجواب .

يلاحظ قارئنا الكريم ان هذا الترسيس ليس عرضا لتطور لفظ الكلمة فى عدة مراحل فقط بل لتطور المعنى فى عدة مراحل كذلك . وثمة من النماذج ما هو اطول تسلسلا واكثر تشعبا وتصاعدا فى معارج الارتقاء لا يتسع لها هذا المقام . ( وقد تطرقنا فى كتابنا « مغامرات لغوية » وغيره من الدراسات الى ترسيس الكثير من الالفاظ الانكليزية وغيرها ، مثل riviera و

copper و calcium
و sing و table
و Caesar و saxon
.. وردناها الى ارساسها العربية )

## سمفـــونيـــة الصحـــراء

يلاحظ فقهاء اللغة الاوربيون ان اللغات السامية كثيرا ما تعمد الى المجاز . هذا شأن اللغات كافة فى الواقع ، لكن الساميات اكثر جنوحا الى المجاز ، حقا .

ان تشابه وجوه البيداء ورتابة الحياة البدوية جعلت اولئك القوم يلتمسون التنويع والتفنن فى اى شىء لا دور سينما ولا مسرحيات ولا مذياع ولا مشواف حرمان من مسرات البيئة وتسلياتها وتنوعاتها ، مع الكثير من عواطف ملتهبة وحب صحراوى محرق وحروب طاحنة لا تكاد تهدأ الا لتعود جذعة وخوف من كوارث محتملة لا عداد لها من محل وجوع وغارات مفاجئة وغـــير مفاجئة من اعداء من البشر او السباع او الافاعـــى .. او الجن ..

تلك النفوس الجياشة اكتشفت تنويعها الذاتى فى عالم ( الكلمة ) . يتصرفون فى تشقيق صيغها ويتحذقون فى تفتيق معانيها متلذذين فى الافصاح بها عن وجدانات النفس متلهفين الى الاصغاء اليها حين تصور لهم بالتعبير البارع الفنى عن وجدانات الغير .

ولم يكن ابتداع المترادفات الكثيرة للمعنى الواحد ولا المعانى الكثيرة للكلمة الواحدة كافيا لاشباع جوعهم الى التنويع والتفنن ولا سيما ان ذلك قد جـــاء عفويا وتطوريا تلقائيا . فمن شوقهم الى الخلق والتمتع بلذة الخلق والامعان فى تقوية التعبير — جاء تلمظهم احيانا بالالفاظ علاوة على تلاعبهم بالمعانى عن طريق التشبيه طورا والاستعارة طورا والمجـــاز والكناية والتلميـــح والتعريض احيانا .

وكثيرا ما ينقلب التشبيه او المجاز حقيقة . ابسط مثال على ذلك كلمة ( الحسام ) مثلا . معناه اللغوى هـــو : القـــاطـــع الحـــاسم ، ولا بـــد ان اول مـــن اختصر الطريق فلم يشأ ان يقول ( السيف الحسام ) ، قد اراد الاكتفاء بكلمة ( الحسام ) ليترك للسامع ان يحزر ما هو الشىء المقصود . وليس الاختصار هو الغرض وانما وجدوا ان ذكر الصفة وحدها واسقاط موصوفها اوقع فى النفس وابلغ فى التعبير . ومن باب الاستمتاع باستعمال الصفة كناية عن الموصوف اتبعوا ذلك فى تسمية الكثير من الاشياء ولا سيما الخطير منها ، مـــن داهية واسد وحية .

فى اللغات الراقية من اوربية وغيرها ايضا يعمدون الى المجاز والاستعارة . لكن من الذى يفعل ذلك منهم ؟ اهل الخيال والبلاغة .. الشعراء والادباء . وانمـــا يدل اكثار العربية منه على ان اهلها شعراء وفنانون ، او على كثرة الشعراء المتفننين فيهم . ومن هنا قيل ان كل عربى شـــاعر ، ولا بد ان يصدر عنـــه البيتـــان او الثلاثة ، ولو مرة فى حياته .

وشدة اهتمام العربى بما يسمع من روائع الكلم منثورا ومنظوما فى ندوات القوم والتهامه اياه باذنيه وقلبه وفرط إلتذاذه به جعل ما يسمع يرســـخ فى ذهنـــه ، فقويت بذلك حافظته فكان يعوّل عليها تعويلنا على اوراقنا ودفاترنا.فلما جاء الاسلام وانتشر التعليم جيلا بعد جيل اخذت الصحف المكتوبة تقوى والذاكرة تضعف تبعا لذلك حتى اخذوا بالتدريج يعتمدون على التدوين الى ان اصبح الاعتماد كله على التدوين ، على العهد العبـــاسى ✻ .

ان تحويل الالفاظ المجازية ( الوضعية ) الـــى الفاظ واقعية ( عينية ) قد كان منجما آخر اغدق علينا فيضا من الثروة اللغوية .

فمن هذا المنجم اغترف ابو عبد الله بن خالويه الهمذانى — الذى قال عنه ابن فارس انه جمع للسيف خمسمئة اسم وللحية مئتين ، كما ذكر الثعالبى ان حمزة الاصبهانى جمع ما يزيد علـــى اربعمئـــة اسم للداهية .. وكما ذكر الاصمعى انه يحفظ للحجر — كالذى قلنا آنفا — سبعين اسما .. ومثله قول ابـــى العلاء المعرى انه يحفظ للكلب سبعين اسما كذلك ، فكل تلك الاسماء صفات استعملت مجازا بدل الاسماء ثم صارت اسماءا .

✻ بسبب عدم تنقيط الكتابة لم يكونوا يكتفون بقراءة الكتاب العلمى وحدهم ، مخافـــة التصحيف ، بل يشترطون على العالم قراءته على مؤلفه او على شيخ ، اى استاذ عالم عن شيخ آخر .. عن المؤلف ، لكيما ينجو القارىء من غوائل التصحيف واخطاء الناسخين . لكن تلك الحافظة الجاهلية الفـــذة ضعفت علـــى كـــل حـــال .

## الـداهيــة :

نستعرض بعض اسمائها لنرى طريقتهم فى تسميتها هى التى طالما لوّعتهم ، تجابههم فى صحـــرائهم انّـــى توجهوا وتأخذ عليهم كل سبيل .

من هذه الاسماء ما يهوّن امرها ، مثل : الملمّة ( اى الزائرة ، من قولهم المّ بهم : نزل بهم واقام ) ، والنازلة ( تشبه الملمة اى من الزيارة والنزول ) .

ومنها ما هو اشد من ذلك مثل : الرُبَيق ( بالتصغير من الربق اى الحبل تربط به البهيمـــة ) ، والأُرَيـــق ( بالتصغير ايضا ، من الارق والغم ) .

ومنها ما هو اشد من هذا ايضا كالمصيبة ( التى تصيب كالسهم مثلا ) ، والنائبة ( التى تعضهم بنابها ) ، والجائحة ( المهلكة ) .. والفاجعـــة .. والرزيّـــة .. والفاقرة ( التى تكسر فقار ظهرهم ) ، وتلمظوا باسمها هذا كانما تدليلا فنطقوه كذلك : الفَيْقَر ( كالفيلق ) .

وسموها الصِمّ ( كالصل ) وهو مستعار من اسماء السيف ( الذى يقطع الصميـــم وهـــو الغضروف بين الفقرتين ) . ولا ادل على نزعتهم فى اللعب بالالفـــاظ وتنويعها امعانا فى الافصاح وتشديد وقعه فى النفس ، نفس المتكلم والسامع ، من تمطّقهم باسمها هذا — وغيره كما سنرى — مذ نطقوه كذلك : الصَمَّاء وصَمَام ( بالبناء على الكسر كقطام ) .

وبعض اسماء الداهية يراد بها التهويل وارهاب السامع بخشونة لفظها وقوة جرسه بالاضافة الى معناها — كانما ليخيفوا انفسهم — على عكس ما تفعله السباع اذ تخيف اعداءها بالزئير والزمجرة بالاضافة الى فتك المخلب والناب . من ذلك : العَنْقَفِير والخَنْفَقِيق ! ويبدو أن هذه الخنفقيق انحدرت من الخنق فلفتوا يتلاعبون بنطقه حتى تخنفق . وأما العنقفير فاثلها ( العَنَـــاق ) — بالفتح — وهو احد أسماء الداهية ايضا ، ثم سموها ( العنقاء ) — وهى غير الطائر الوهمى المشهور — ثم ( العَنْقَز ) — بالزاى المنقوطة ، زنة الجندل . ولم يشف غليلهم كل ذلك الى ان جاء يوم فنطقوها العنقفير ، واستراحوا . .

واحيانا يعمدون الى السخرية كقولهم كناية عـــن الوقوع فى داهية : « وقعوا فى قرنى حمار ، أو فى است كلب » أو فى غير ذلكم .

وقد يكون اسمها بعيدا عن التدليل والاستهانة والسخرية ليفصح عن حقيقة شعورهم تجاهها ، مثل : الكريهة .

ولو نحن جمعنا اسماءها فى وزن وقافية لالفنا من سمفونية الصحراء ما يمكن تسميته ( نشيد الهول ) .

فيما يلى مثال من تلكم الاسماء المرعبة ، ممـــا ذكرنا آنفا وما لم نذكر :

حاطمـــةٌ جائحـــة ضــرّاءُ
ملمّـــةٌ نازلـــة صمّــــاءُ
صِمٌ صَمَامِ نكبـــةٌ وبلـــوى
وبلـــوةٌ بليّـــة بـــــلاءُ
داهيـــةٌ فاقـــرةٌ وَفَيْقَـــرٌ
مصيبـــة نائبـــة بـــاســـاءُ
قد وقعوا فى دردبيسٍ باقعـــه
وفى است كلبٍ وأرَيْقٍ فاجعـــة
وتمطريرِ عَنْقَفِيـــرٍ واقعـــة
وخَنْفَقِيـــقٍ أمّ هولٍ قارعـــةُ !

## السيــف :

معظم اسمائه من معنى القطع ، مثل الصارم والجُرَاز والقِرضاب والمطبِّق ( كالمؤذّن : الذى يصيب طبَقَ المظم ) والبتّار ،، ثم السيف ( من السائف اى القاطع ايضا ) ، مثل صياغة الطيف من الطائف والغيب من الغائب والغيث من الغائث والليث من اللائث ) ، اى أن ( السيف ) ايضا صفة وليس اسما جامدا كما توهم اللغويون منذ القدم .

« قيل ان ابن خالويه زعم انه يحفظ للسيف خمسين اسما ، فتبسم أبو على الفارسى وقال : ما احفظ له الا اسما واحدا وهو السيف ! قال ابن خالويه : فأيـــن المهنّد والصارم وكذا وكذا ! قـــال أبـــو على : هـــذه صفـــات » .

لكن بحثنا التأثيلى اظهر لنا أن ( السيف ) ايضا من الصفات ، كالذى اشرنا اليه * .

بالاضافة الى معنى القطع وردت للسيف أسماء هى مجرد نعت موضوعى لا يهتدف مدحا ولا ذما ، مثل

* تفصيل ذلك ورد فى حديثنا « دخيل أم اثيل » — اللسان العربى ، العدد 12 — 1975 ، ج 1 — ص 18.

الصفيحة والمأثور ( فى متنه اثر ) والمشطّب ( فى نصله شطوب اى خطوط ) والداثر ( الـذى طـال عهـده بالصقـال ) .

وقد يكون الوصف الواقعى غير موضوعى ، ليدل على انه ابلغ فى القطع ، مثل المنثّر ( كالمظفر : الذى فى حده نثرات ، ومنه ذو الفقار سيف الامـام علـى المشهور ) والمِشمل ( كالمنبر : السيف القصير يُشتمل عليه بالثياب ) .

ومن اسمائه ما ينبىء بمكان صنعـه ، كالمشرقىّ ( نسبة الى مكان فى مشارف الشام ) واليمانى والهندى او الهندوانى . وليست هذه التسميات المكانية بالمحايدة هى الاخرى لان المراد بها جودة الصنع .

ومن اسمائه ايضا ما يحمل معنى التغزل والمباهاة برونته مثل : الابيض والصقيل والإبريق ( البرّاق ) والتشبيب ( الحديث الجلاء ) والرقراق ( الكثير الماء ) والعقيقة ( وهى اصلا : البرقة تستطيل فى عـرض السحاب ، ومن ثم قالوا « سلّوا عقائق كالعقائـق » اى سلّوا سيوفا تلمع كالبروق ) .

ومن فرط حبهـم له وعرفانهم بجميلـه وحسن بلائه فى نصرتهم سموه : الخليل ! وشبيه بذلك الرِداء (من الـرِدْء ـ كالعبء ـ وهو : العـون والناصر ، او من الرَدْي ـ كالسعي ـ اى : الصَدْم) .

اما من باب التّلمظ باسمـه فقد سموه الهَـذّاذ والمَهذاذ والهُذاهِذ (بالضم) .. والخَـذِم (كالفطن) ، والخَـذُوم (كالرسول) والمِخـذَم (كالمنبـر) والمُخَـذِّم (كالمصدّق) .

ويمكن جمع بعض اسماء السيف فى ابيات مـن قبيل :

ولى صارم ماضي الصفيحة مِهذَمُ
هَـذومٌ هُـذام مِخـذَم ومخـذِّم
يمانٍ جراز باتر النصل قُرضُوبُ
رداءٌ تشيبٌ ذو الكريهة مشطوبُ
تضيب نُضاب مِقضبٌ وخليـلُ
وصِـمٌ وصَمصَـام يهذُّ صقيـلُ

## الاســـد :

وما ادراك ما الاسد ، كان شيئا مخوفا فى تلك الايام ، لم يكـن لديهم رشاشات ولا بنادق ليصيدوه من بعيد . هو الذى يصيدهم من قريب . وسهامهـم لا تصيبه من مسافة مأمونة ، وان اصابته لم تصب منه مقتلا الا فى النادر ، لهذا لم يكن يجرؤ على مهاجمته ولا على مدافعة هجومه الا رامح او سيّاف .. وقليل ذلك البطل .

لذلك خصّوه ببعض اسماء الداهيـة والسيف ـ علاوة على اسمائه الرهيبة ـ مثل الصِّمّ (كالسر) والصمصام (كالثرثـار ، وكلاهما من اسمـاء السيف) والصِمّة (كالهمّة من اسماء الداهية والسيف) . وتلمظا باسمه اضافوا الصِمْصِم (كالسمسم) .

طبيعى اذن انهم عدوه بـلاءاً اذا اعتاد قطـع الطريق على المسافرين او اقتحام المضارب والخيـام ليلا على المقيمين . ومن ذلك قول المتنبى فى وصفـه : نزلَتْ على الاردنّ منه (بليّة) . واحسبهم قـد سموه فى قديم زمانهم (بَلْوَى) وهى كالبلية من اسماء الداهية . دليلي على ذلك ان ( belua ) تطلق باللاتينيـة على الحيوان الضخم من اسد وفيل وحوت . ولا نستغرب اطلاق اسم الاسد على اكثر من حيوان هنا فان ذلك شائع فى العربية ، ونذكر من اسماء الاسد بالذات : الصِمّة : الاسد والذكر من الحيات وانثى القنفذ ـ كما قلنا قبـل ـ والسِيد (كالعيد) : الاسد والـذئب .. والليث : الاسد وضرب من العناكب !

من اسمائه ايضا ما هو مستوحى من لونـه ، منها : الورد (من لـون «الارض» بدليـل انها تسمى بالالمانية erd) (*) ، والعِفـر (كالعطـر) والعِفِرّ (كالسجل) من العَفَر (كالقمر) اى التراب .

ومن اسمائه ما هو وصف لخلقته مثـل : ابى لُبَد واللبد ( كالمحسن ، من لبدته اى الشعر المحيط برقبته وصدره ) ، ثم العِفَرن ( كالهزير ، من عُفرته اى لبدة رقبته ) ، والخطّار ( المتبختر ) ، واللائث ( من لاث شيئا : لاكه فى فمه ، لانه يلوك اللحم كما نراه يفعل فى الحير * ) ومن هذه صيغ الليث .

(*) فصّلنا ذلك فى بحث «الروض والعروس والعراق» ـ كتابنا «تاريخهم من لغتهم» .
* الحير ـ زنة الطير ـ حديقة الحيوانات .

وكم اسماء له من معنى الكسر . منها قبل كل شيء ، الكاسر ، ثم القُضافر ( بالضم ، من غضفت عودا : كسرته ) ومنها الغضفر ايضا .. ثم العَرنْدَس (كالسفرجل ، من عردسه : صرعه ) .

وبعض الاسماء من معنى القطع مثل الهزبر ( من هزبرت شيئا : قطعته ) والقرضاب ( من قرضبته : قطعته ، وهو من اسماء السيف ) ..

وأسامة ( من سام على القوم : اغار عليهم فعاث فيهم ) ..

ومن اسمائه المتنوعة : الصيّاد والصاد ، ثم الريبال ( ويخالها اللغويون تخفيفا من الرئبال ، بالهمز. لكننا نرى العكس لان الكلمة مشتقة من الرَبْل والتربُّل اي التصيد ، ثم همزت ) .. والضيغم ( العَضّاض ) ، والضرغام ( الغضوب ، من ضَرِم — كفرح — وتضرّم عليه : احتدم غضبا ، وضرِم في الطعام : جدّ في اكله لا يدفع شيئا منه ) ، والسِيد ( كالعيد ، من السيادة ، تخفيفا من السيّد — بالتشديد — كما تنطق الكلمة بالاسبانية بنفس المعنى : alcid).

ويبلغ تلذذهم بتنويع الصيغ حد الاغراق في نعت هذا الحيوان في مثل الصِم والصمّة والصِمصِم ( وكلها بالكسر ) والصُماصم ( بالضم ) والصَمصَام ( بالفتح ) وهي مستعارة من اسماء السيف ، ثم تبلغ النشوة في التمطّق والتنويع اقصاها في : العِفر ( كالعطر ) والعِفِرّ ( كالسجل ) والعفريت والعفرين والعِفَرْن ( كالهزبر ) والعَفَرْنَى ( كالعَرَضْنَى ، بسكون الضاد وفتح الباقيات ) والعِفرناة ( بكسرتين ) والعِفرية ( كالإطرية وهي من اسماء الداهية ) والعِفرس والعِفريس والعِفراس ( وكلها بالكسر ) والعُفروس ( كالعصفور ) والعَفَرْنس ( كالسفرجل ) والعَفرفرة .. فهذه اربع عشرة لفظة من مادة واحدة هي ( العفر ) فهل يعني هذا شيئا غير قوة حاسة الطرب والتلحين في القوم ؟

والكثير من اسماء الاسد ادل على الاعجاب والتقدير منها على الكراهية والذعر .

وان شئنا وضع بعض اسماء هذا البهيم البطاش في وزن ينتظمها لتاخذ مكانها في سمفونية الصحراء عرضنا بعضها هكذا مثلا :

هو الكاسر الخطّار والرابض الرادي
أبو لبد المعروف بالصِمَّة الصاد
هو الاسد الرئبال سِيدٌ عَرَنْدَسٌ
عِفَرْنٌ وعفرين عَفَرْنَى عَفَرْنَسٌ !
وعِفْرٌ عِفَرٌ عِفرسٌ وعَفرفَره
وعفرية العفريت ليث وقسوره
اسامة وَرْدٌ ان تَريّد حيدرُ
وان صال قرضاب هزبرٌ غضنفرُ
وإن نام ربّاض وإن قام ضيغم
مُصَامِمُ صَمصَام وصِمٌّ وصِمْصِمُ !..

ما كان العرب بطبيعة الحال يسردون اسماء الداهية والاسد والسيف على هذا المنوال ، وانما كانوا يستعملون كلا منها في عبارة تحكي موقفا متأزما او تروي خبرا مروّعا ، فيكون للكلام رهبته ووقعه المشحون بالطاقة الشعورية المؤثرة .. يختارون لكل حالة أحد هذه الاسماء الكثيرة المعبرة ، اما مجرد سردها على هذه الوتيرة فلا يؤدي الا المقدار الضئيل من الغرض الذي نريد اليه .

على ان اختلاف المعاجم وكتب اللغة في تعريف هذه الاسماء وفي استعمالاتها ينبيء أن الاسماء والصيغ قد كانت اكثر بكثير مما احصاه الرواة ، ما دام باب الاستعارة مفتوحا ، على مصراعيه أمام الجميع . لقد كان في وسعهم وما زال في وسعنا — أن نستعير من كل نعتٍ إسماً لاي شيء ، فاذا صادف استحسانا شاع وفرض نفسه على الاذواق .

ولو جمعنا كل تلك الاسماء مع أسماء الحية والجمل والحصان والغزالة وحتى الكبش والتيس .. ثم العسل والخمر والحب والبغض والخوف والغضب والحرب .. ووضعنا كلا منها في عبارة مناسبة متفجرة .. لألّفنا ( سمفونية الصحراء ) ..

وهل الشعر الجاهلي ، بجملته ، غير ذلك ؟